الأوبئة في القرن التّاسع الهجري: كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون أنموذجاً

* خولة حمد خلف الزيدي

** عبد القادر حسيني

* أستاذ، كلية التربية الأساسية، جامعة ديالى، العراق

** جامعة أدرار، الجزائر

الملخص

تظهر أهمية هذا البحث في ملاحظة الظواهر الاجتماعية التي حلت بالمجتمع الإسلامي لمّا حلَّت بها نازلة الطاعون، وانعكاساتها الاجتماعية، على الحركة العلمية...، تحريك أقلام العلماء للتوليف وغيرها، معرفة أحوال الأمم وتطورها بفعل العوامل الاجتماعية والطبية، علاقة السلاطين بالرعية في نازلة الوباء.

تتمثل إشكالية هذا البحث في خطر ما عليه المجتمع في وقتنا الحالي من هذه النازلة التي عصفت بالعالم أجمع، واحتاجت إلى تضافر كلّ الجهود العلمية والصحية والتاريخية للحفاظ على سلامة المجتمع والفرد ، كما يهدف البحث إلى الوقوف على Bأبرز وأهم الحوادث والأحداث التاريخية والأوبئة، التي أصابت المجتمعات السّابقة والآثار التي خلفتها مثلَما تلك التّوازل على المجتمع، وطريقة معالجتها عند الأقدمين، و لبيان أن التاريخ علم ذو صلة مع العلوم الاجتماعية والطبية وليس بمعزل عنها، بيان إرهاصات الفكر السياسي عند ابن حجر العسقلاني ونظرته الاجتماعية للواقع، استخلاص العبر في سرد التواريخ والإحداث والتعليق عليها.

و قام المبحث الأول في منهجه على تحليل مصطلح الوباء و دلالاته، وتمحور فيه الحديث حول تحليل المصطلح تحليلاً اجتماعياً، تحليلاً نفسياً، و تحليلاً فقهياً أما المبحث الثاني؛ فعزم الباحثان على تناول مسألة: كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون؛ نسبته إلى مؤلفه، منهجه في تأليفه ، مقصده من تأليفه، البعد التاريخي في تأليفه.

يدعو البحث إلى مواصلة تتبع قضية قراءة التاريخ في كل المجالات من خلال عمل الندوات والمؤتمرات وإبراز ثمرات ذلك الإرث على البشرية جمعاء، وحث الأفراد والمجتمعات على القيام بدورهم تجاه أمثال هذه القضايا المهمة التي تمس الحياة وديمومتها على الأرض.

الكلمات المفتاحية : الأوبئة، بذل الماعون في فضل الطاعون، القرن التاسع الهجري.

المقدمة

الحمد لله الذي وزّع الأرزاق على منطق الإرفاق، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أشرف الرّفاق. . اللهم

لك الحمد كلّ الحمد يا راحم الضّعف و يا دائم الإحسان والرّفق واللطف
إليك مددنا الكفّ كي ما تمدّنا بما نرتجي يا مالك البسط والكف
فعاف ودافع عنا يا رب واكفنا بحفظك ما نخشاه فغيرك لا يكفي

أما بعدُ ؛ فإن الدراسات التراثية لعبت ولا تزالُ تلعبُ دوراً رئيساً في كيانِ الأمم، ومنطلقات الشّعوب، وهي نوعٌ ركين في دراسة الماضي، وربطه مع المستجدات، واستشراف الحلول والبدائل، ولا غرو أن الناظر فيها بعين التمحيص يدرك مقاصد التأليف، وحقائق التوظيف، ومنازل التكثيف، وعوائد التّوصيف، وانطلاقا من هذه الوحدة اللّغوية، والبنية التركيبية التي تناسب تناسق حدود هذا العنوان المنتخب قصد البحث في ما تقتضيه مادته العلمية.

سئل الإمام مالك – رضي الله عنه– عن المقرّب للقتل (الذي لم يبق من عمُره إلا ساعة واحدة) في أي عبادة يصرفها ؟ فقال: علم يتعلّمه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه لا يعمل به، فقال: تعلّمه أفضل من العمل به.

المبحث الأول: الرسوم التحليلية للأوبئة والحضارة الإسلامية

تمهيد

إنّ كل دارس للعسقلاني، يُدرك أهمية الخطّ الفكري الذي تموقع فيه؛ إذْ لا يَجِد مَن له أدنى تأمّل صُعوبةً في معرفة أنّ الخطّ الذي أسّس له كبارُ المؤرّخين والمعتكفين على كتابة التاريخ الإسلامي في الحضارة الإسلامية ؛كابن كثير والطّبري وغيرهم قد اجتمعت روافده في العسقلاني، فإذا كان من قَبله عنَوْا جُهدهم في تقصّي الأخبار وعكفوا وقتهم على تحليلها، فإن العسقلاني هو مستأنف هذه الرّيادة في الناحية الاجتماعية، انطلاقاً

من فكره الجامع بين البعد التراثي الديني والسَّنَني، والبحث عن الظّواهر الاجتماعية وما يعتريها من تغيرات، أو يعتورها من تحدّيات، ولعلّ أهم ما يسلكه الناظر في هذه الزاوية البحثية؛ الاعتكاف على تحليل المصطلحات الواردة فيها، وسبر مادتها المعرفية، ومناحيها الفكرية لتكون توطئة لصميم الموضوع.

المطلب الأول: الأوبئة بين المسارات التاريخية والمفاهيم اللغوية

إنّ ضبط ورصد المفاهيم، والمصطلحات؛ يعدّ أهم الوسائل المفضية إلى حلّ الإشكالات، وتوحيد الرؤى، وتجاوز الاختلافات التي تنشئها قلة التصورات، وتجاوز المحدودات في حدودها التعريفية، فبضبط المفاهيم وتحديد المدلولات تتضح المهمات، وتقصر المدلهمات، يحتوي هذا المطلب على حكاية حركية التغير الدلالي لمصطلح الأوبئة بين المسارات التاريخية، والرؤى اللغوية التي أنشأت مفهوماً دلالياً واسعاً لمصطلح الوباء.

الفرع الأول: أهم المسارات التاريخية لمصطلح (الأوبئة)

1 - مصطلح الأوبئة في الدراسات التراثية اللغوية

مصطلح الأوبئة كان مرادفاً لمصطلح الطاعون، في كثير من المعاجم اللغوية التي اهتمت بسرد معاني المصطلحات في الدراسات التراثية، ومن ذلك ما عرّف الجوهريُّ به الطاعون في قوله لبيان حقيقته؛ "الطاعون هو: الموت الوحي من الوباء، والجمع الطواعين"[1]، وعلى هذا المعنى سار الكثير ممن اهتم بجمع المعاني اللغوية للمصطلحات كابن منظور في مؤلفه[2]، وغيره، والناظر في الدراسات التراثية الحديثة يمعنُ أن أهل الحديث كذلك ألصقوا معنى مصطلح الوباء بمصطلح الطاعون؛ ونعتوا البلاد الذي ينتشر فيها الطّاعون ببلاد الوباء؛ فصاحب فتح المنعم يذكر في أثناء سرده لقصّة طاعون عمواس: " . . . و رجع أبو عبيدة وأصحابه إلى بلادهم بلاد الوباء. . . توفي في هذا الطاعون. . "[3]، فالناظر يلحظُ ربطاً بين كلا المصطلحين، مصطلح الوباء و مصطلح الطاعون، ثم يقول في تعريفه للطاعون: "والطّاعون وباء معين؛ لأن الوباء هو المرض الذي

يعم الكثيرين من الناس في جهة من الجهات، مغاير للمعتاد، فالمعتادُ أمراضٌ مختلفة، أما الوباء فهو مرضٌ واحدٌ ينتشرُ بكثرة بشكلٍ واحدٍ وأعراض واحدة" ، وفي هذا بيانٌ تفصيليّ لمصطلح الوباء؛ حيثُ يميّزه عن مصطلح الطاعون، بأن الطاعون عامٌّ، ومغاير للمعتاد من الأمراض، على خلاف الوباء الذي يفسّر معناه بأنه مرضٌ واحد ينتشر بكثرة بشكل واحد، ثمّ يعرضُ مواقف اللغويين بشكل دقيق في إشكالية الترادف بين مصطلحيْ الوباء والطّاعون، فيقول: "وقد كثر إطلاقُ الوباء على الطّاعون كأنهما مترادفان، حتى كانت عبارة اللغويين توهم ذلك، قال الخليل: الطاعون الوباء، والصّحيح أن الوباء يعمّ أمراضاً، إن سمّيت طاعوناً، فمن حيثُ شبهها به في الهلاك، فكلّ طاعونٍ وباء، وليس كلُّ وباء طاعون "[4]، وهذا فيه تحليل دقيقٌ لغوي، يتسم ببعد طبي بديع.

2 - مصطلح الأوبئة عند ابن حجر العسقلاني[5]

تمّ تخصيص النظر وإفراد الأثر في ما جاء به ابن حجر في المصطلح المدروس، حتى يلائم المؤلف أطر كتابه الفكرية، ومناحي منهجه اللغوية، الناظر في ذلك يجد أن ابن حجر العسقلاني ينحو في تعريفه لمصطلح الوباء، منحى آخر ينطلق فيه من منهج الجمع إلى منهج الترجيح؛ فنجده مثلاً يعرّف مصطلح الطاعون، ليفرّقَ بينه وبين مصطلح الطّاعون، ومما يميّز منهجه الذي سار وفقه في تحليله للمصطلح أنه يزاوج بين المعاني اللغوية والإشارات الطبية، ويراوحُ بين النكت الحديثية والمساقات التّاريخية ليصل إلى فكرة استقرائية بديعة يستنتجها الناظر، ويمكن جمع ما أت به في أفنان شرحه على صحيح البخاري في ما يأتي:

أولاً- منهج الجمع بين المعاني

حاصلُ الجمع بين ما جمعه ابن حجر قصد بيان مدلول كلا المصطلحين، مفاده أن الطاعون مرض خاص بالجسم له أنواع محدّدة مشهودة عند أهل الطّب؛ فمنه ما يكون على شاكلة قروح خارجة من الجسد، ومنه ما يكون غدّة تخرجُ في المراط والآباط، وإما أن يكونَ انصبابَ الدّم في العروق، وإما أن يكونَ مادة سمية تحدث ورماً قتّالاً، أما الوباء؛ فعرّفه بأنه: جوهر الهواء الذي هو مادّة الروح ومدده.

ثانياً- منهج الترجيح بين المعاني

بعد حوصلة ما انتهى له بحث ابن حجر في تحليل الفرق بين المصطلحين (الطاعون) و (الوباء) خلصَ إلى :

1 – أن الوباء غير الطاعون، وأن من أطلق الطاعون على الوباء، فإنما على سبيل المجاز.

2 – أنّ أصل الطّاعون الذي أغفل ذكره الفقهاء والأطباء أنه من طعن الجنّ.

3 – أنه يحتملُ أن يكونَ الطاعون على قسمين: قسم يحصُل من غلبة بعض الأخلاط من دم أو صفراء محترقة أو غير ذلك من غير سببٍ يكون من الجنّ، وَقسمٌ يكونُ من وخز الجنّ كما تقع الجراحات من القروح التي تخرجُ في البدن من غلبة بعض الأخلاط، وإن لم يكن هناك طعنٌ، وتقع الجراحاتُ أيضاً من طعن الجن.

الفرع الثّاني: وباء الطاعون في الطب العربي

إنّ الناظر في الطب العربي، يلفتُ نظره سبق الأطباء العرب في الكشف عن الأمراض، وسبر مواضعها التي تسيطر عليها، وكيفية وجودها في الجسم، وفي ما يلي تحليل لبعض المشاهد التي وقف عليها الباحثان، أثناء الدراسة.

1 – وصف ابن سينا للطاعون

وصف ابن سينا الطاعون بأنه : ورم قتّالٌ يعرضُ في أكثر الأمر في الأعضاء الضّعيفة مثل : الآباط الأربية، وخلف الأذن، ويكونُ أردؤها ما يعرضُ في الآباط وخلف الأذن لقُربها من الأعضاء التي هي أشد رئاسة، وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر ثم الذي إلى السّواد لا يفلت منه أحد[6]؛ وفي هذا القول بيانٌ لتجسيد طبي للطاعون، وتجسيد تام للمواضع التي يعتريها هذا الداء، إضافة إلى لمواضع التي يقتنصها من جسم الإنسان.

2 – وصف الرازي للطاعون

وصف الرّازي في الحاوي الطاعون على أنه: ورم حارّ يعرضُ في الأربيات

والإبط، ويقتلُ في أربعة أيام أو في خمسة، والطاعون الرديء أسود، والطاعون الأحمر أقلّ شرّاً على أنه ربما قتل، ولًا يكادُ ينجو من الأسود والأخضر أحد، وفي هذا توصيف للطاعون، بيد أن في إظهار عجز الأطباء عن إيجاد دواء له، بيان تصريح ذلك في قول الرازي : "ولايكادُ ينجو من الأسود والأخضر أحد".

الفرع الثّالث: اختلاف العلماء في جدوى التداوي من الطّاعون

اختلف العلماء هل يفيد التداوي للطاعون؟ وهل ينفع فيه ما ورد من الأدعية والأذكار ونحوها؟

فذهب جماعة من العلماء إلى أن التداوي لا يفيد مع الطاعون شيئاً، وقالوا: إن كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية إلا الطاعون، فإنه قد أعيا الأطباء دواؤه.

وقال الحافظ جلال السيوطي فيمن مات في الطاعون: وأكثر أناس في الطاعون من أشياء لا تغنيهم، وأمور لا تعنيهم؛ من ذلك استعمال مأكولات وقوابض، ومخففات وحوامض، وتعليق فصوص، لها في كتب الطب نصوص، وهذا باب قد أعيا الأطباء، واعترف بالعجز عن مداواته الألباء؛ قال: ولم أعول على ذكر شيء مما ذكره الأطباء فيما يستعمل أيام الطاعون؛ لأنه شيء لا فائدة فيه، وهم إنما بنوا ما ذكروه على ما قرروه من أن الطاعون ناشئ عن فساد الهواء، وقد تبين فساد ما قالوه بمجيء الأحاديث النبوية بخلافه، فالأولى طرح ذلك، والتوكل على الله سبحانه وتعالى، انتهى[7].

المطلب الثّاني: تعريف الحضارة

تعدّ الحضارة المنطلق الأول الجامع للريادة الفكرية، والتألق المنهجي خاصة إذا انطلقنا من مفهوم كون المتحضّر هو الذي يحمل جملة الصّفات المكتسبة خارج الطّبيعة، مجموع الصّفات والظّواهر المميزة للمجتمعات التاريخية في أوج رحلتها التاريخية، وخاصة إذا نظرنا إلى كون التاريخ حلقة وصل بين المتقدمين والمتأخرين، يحتوي هذا المطلب على ماهية الحضارة الإسلامية لينطلق من فكرة أساسية تنساقُ وفقها الحركة التأليفية لابن حجر

العسقلاني، ويتبين من خلالها المنهج التاريخي في كتابه بذل الماعون في فضل الطاعون.

الفرع الأول: الحضارة لغة واصطلاحاً

أولاً: لغة[8]

قال ابن فارس: "الحاء والضّاد والرّاء إيراد الشّيء، وورووده ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا، وإن كان الأصل واحداً، فالحَضَرُ خلاف البَدْوِ[9]، وسكون الحَضَرِ الحِضارة"[10].

ثانياً: اصطلاحاً[11]

الحضارة: هي تعبير عن منظومة العقائد والقيم والمبادئ، وجِماعُ النّشاط البشري في شتّى حقول الفكر والعلوم والآداب جميعاً، لا فرق بين فنّ وآخر، وما يتولّدُ عن ذلك من ميول ومشارب وأذواق تصوغ نمطاً للسُّلوك، وأسلوباً للحياة، ومنهجاً للتّفكير، ومثالاً يُحتذى به، ويُسعى إليه[12].

الفرع الثّاني: ماهية القيم الحضارية

أ- القيم الحضارية

هي جملة المبادئ، والأخلاق، والأحكام، والتّعاليم، والنّظم الاجتماعية، والسّياسية، والاقتصادية التي تميّز حضارة ما، وتبيّن قدرها، وتنظّم علاقاتها، وتستمدّ من الأديان السّماوية، أو المذاهب الوضعية، أو العرف والعادة، ويتواصى بها المجتمع ويتوارثها الأجيال، ويجاهد في سبيلها[13]، وهي تشكّل الجانب المعنوي الذي يقابل الجانب المادّي للحضارة المتمثّل في العمران والمعمار، والجانب التّطبيقي للنّظم الإدارية، الاقتصادية، العسكرية، ولا تخلو حضارة إنسانية من قيم حضارية يعتزّ بها النّاس، ويتميّزون بها عما سواهم[14].

ب- مفهوم الحضارة الإسلامية

- **عرفها النجار بقوله:** "والحضارة الإسلامية إنما تعني ذلك الكسب العمراني الذي حقّقه المسلمون في مسيرتهم الخلافية مؤسّساً على مبادئ عقدية، وموجّهاً بتوجيهات شرعية في كلّ مجالات الحياة"[15]، فالضّابط في مفهوم الحضارة الإسلامية عند النّجار هو كونها مكسباً عمرانياً إسلامياً مؤسساً على مبادئ عقدية، موجّهاً بتوجيهات شرعية، مرتبطاً بالمسيرة الخلافية.

- **ويمكن تعريف الحضارة الإسلامية بأنها:** نتاجٌ لتفاعل ثقافات الشّعوب التي دخلت في الإسلام، سواء إيماناً وتصديقاً واعتقاداً، أو انتماءً وولاءً وانتساباً، وهي خلاصةٌ لتلاقح هذه الثّقافات والحضارات التي كانت قائمةً في المناطق التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولانصهارها في بوتقة المبادئ والقيم والمُثل، التي جاء بها الإسلام هداية للنّاس كافّة[16].

المطلب الثالث: معالم المنهج الحضاري

بعدما سبق الحديث عن ماهية القيم، وأساسية دورها في إعادة البناء الحضاري، وعن التّفرقة بين الحضارة بمفهوم عام، والحضارة الإسلامية كمفهوم خاص، كان لابدّ أن يسبق الحديثَ عن مقاصد القيم الحضارية حديثٌ عن ماهية الحضارة ومعالم المنهج الحضاري عند ابن عاشور.

الفرع الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية

- المفهوم المستنبط للحضارة

إن الحضارة هي نظام منبعث من التّفكير البشري، مُساوِقٌ للتّاريخ، ذلك التّفكير البشري الذي يقسمه على شطرين[17]:

أ- تفكير مقدّس: وهو التّفكير المختص بموضوع وجود الله -تعالى- وصفاته، وصفات رسله، من كونها تفكيراً، تُتلقى مبادئه، وأوائله بصورة التقليد والتّسليم للرّسول

الموثوق بصدقه، وبنصحه فيما يأمر به، ثمّ تقام الأدلة عليها بعد تلقّيها.

ب- **تفكير اجتماعي**: وهو التفكير فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنّجاح في الحياتين، فهو تفكير اجتماعيٌّ؛ لأنّ إصلاحه من أهم ما قصدته الشّريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الفرد.

- المفهوم المستنبط للحضارة الإسلامية

بتتبع منهجية العرض يتضحُ أن مفهوم الحضارة الإسلامية هي تلك المرحلة المزهرة التي تجاوب فيها المسلمون مع مبادئ الشّرع الحنيف، والاعتقاد الصّحيح، والعمل الصّالح، فحققوا فيها مجتمع الأمة المتدينة بالإسلام في أزهر عصور أتباعها.

• المقاصد من دراسة الحضارة الإسلامية

- تسهم في تأسيس المدنية الصّالحة، ويعد منهاجاً يُهتدى به إلى مناهج الخير والسّعادة: يقول ابن عاشور: "غرضي أن أبحث عن روح الإسلام وحقيقته من جهة مقدار تأثيرها في تأسيس المدنية الصّالحة، ومقدار ما ينتزع المسلم بها من مرشدات يهتدي بها إلى مناهج الخير والسّعادة "[18].

- تصوّر معظم مبادئ الدّين. يقول ابن عاشور: "وإنّ إلقاء نظرة واسعة لهيئة مجتمع الأمة المتدينة بالإسلام في أزهر عصور أتباعها لكافٍ للمتأمّل الألمعي في تصور معظم مبادئ ذلك الدّين "[19].

الفرع الثّاني: مرتكزات المنهج الحضاري[20]

أ- إيجاد الجامعة الإسلامية

أولاً- مفهوم الجامعة الإسلامية

- هي: رابطة دينية مقدّسة، جعلها الإسلام رابطة دينه الحقِّ، تصغر أمامها الرّوابط كلّها، ودعا النّاس لاتِّباعه لِيُكوِّنوا أمّة واحدةً تجمعها وحدةُ الاعتقادِ والتّفكيرِ والعمل

الصّالح حتىّ يستتبَّ للمسلمين إقامة هذه الجامعة، فلا تخترقها جامعةٌ أخرى تثلمها[21]، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، فالمرتكز الأولّ في الحياة الحضارية عند ابن عاشور هو إيجاد جامعة إسلامية موحدة، يُشترط لها الاتحاد في الاعتقاد والتفكير والعمل الصّالح؛ لأنها تعتبر المنطلق الصحيح للقيم الحضارية.

ثانياً- المقاصد من إيجاد الجامعة الإسلامية

- **قيام الجامعة الإسلامية على الفطرة**: فالجامعة الإسلامية جامعة فطرية؛ لأنها تعتزي إلى النّاحية الإنسانية المحضة التي لا يخلو عنها بشر، والإنسانية هي فطرة البشر، أما بقية الجوامع؛ فهي جوامع جعلية اصطلاحية؛ فهي وإن كانت تميل إليها الفطرة وتعضّدها فإن للاصطلاح فيها حظّاً عظيماً[22].

- **تكوين جماعة المسلمين**: فإذا قامت الجامعة الإسلامية على وفق مبادئ صحيحة، قويمة، قام على وفقها مجتمع صالح، فمن مقاصد إيجاد الجامعة الإسلامية تكوين المجتمع المكمّل للجامعة، يقول ابن عاشور: "لا يكون المجتمع مكمّلاً للجامعة إلا إذا كان على وفاق مبدأ هذه الجامعة"[23].

ب- الأخوة الإسلامية

مفهوم الأخوة الإسلامية: وهي رابطةٌ وثيقةٌ بين المسلمين أينما كانوا من الأقطار، تسنّى بها للمسلمين التّعارف والتواصل والاتّحاد على اختلاف الأمم الدّاخلة في الإسلام[24]، وهي بهذا التعريف تُعدُّ مَعْلَماً ومُرْتَكزاً حضارياً لا يُستغنى عنه لوثاقة رابطتها على اختلاف الأمم الداخلة في الإسلام.

ج- الاعتدال والتّوسّط

مفهومه: "الاعتدال؛ هو الكمال وهو إعطاء كل شيء حقّه من غير زيادة ولا نقص، وهو ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها

ومنافعها، وهو الحكمة المنوّهُ عنها في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 269]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 39]، ويعبّر عن الاعتدال بالتّوسّط "[25]، فالاعتدال من هذا المنطلق هو مُرتكز حضاري رمى إليه الشّرع وحضّ إليه، ناشئ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه.

المبحث الثاني: ابن حجر العسقلاني وكتابه بذل الماعون

احتلّ الحافظ ابن حجر العسقلاني مكانة مرموقة في تاريخ الفكر الإسلامي؛ مما يدلّ على ذلك مؤلفاته المرموقة التي تعدّ واحدة من أمهات الكتب والموسوعات العلمية التي تقوم عليها المكتبة الإسلامية، خاصة أن ابن حجر واحد من العلماء المسلمين الموسوعيين الذين كتبوا في علوم الإسلام المختلفة، هذه الكتابات التي عكست نبوغه وتألقه، وأوصلت متبعي نهجه ومقتفي أثره العلمي إلى القمة، تأتي هذه الجزئية لمزيد إضفاء حول شخصية ابن حجر العلمية، ثم تسلط الضّوء حول كتابه بذل الماعون في فضل الطاعون وظروف نشأته التاريخية.

المطلب الأول: التعريف بابن حجر

الفرع الأول: اسمه وكنيته[26]

هو: "أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد"، المعروف بابن حجر، الكناني، العسقلاني الأصل، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، الشافعي المذهب، شيخ الإسلام، حافظ الدنيا في عصره، كان يلقب شهاب الدين، ويكنى أبا الفضل، كناه بذلك أبوه كما ذكر هو في (إنباء الغمر) في ترجمة والده، فقال: "وأحفظ منه أنه قال: كنية ولدي أحمد: أبو الفضل"، وكناه شيخه العراقي (أبا العباس)، وكذا كناه غيره، لكن تكنية أبيه له بـ (أبي الفضل) هي التي كانت معتمدة لديه وغالبة عليه، وأصبحت لصيقة اسمه في ترجمته لنفسه وفي تراجم سواه له. ويبدو أنها كانت محببة

إليه، حتى إنه ألف كتاباً سماه (القصد الأحمد بمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد)، وأما شهرته بابن حَجر؛ فقال فيها السّخاوي: "اختلف هل هو اسم أو لقب؟، فقيل: هو لقب لأحمد الأعلى في نسبه، وقيل: بل هو اسم لوالد أحمد المشار إليه، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في جواب استدعاء منظوم بقوله:

من أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني المحتد
ولجد جد أبيه أحمد لقبوا حجراً وقيل بل اسم والد أحمد

الفرع الثاني: ولادته ونشأته

ولد في الثاني والعشرين من شعبان سنة 773هـ على شاطئ النيل بمصر، ونشأ يتيماً؛ إذ مات أبوه العالم الأديب الشاعر التاجر سنة 777هـ، وكانت أمه قد ماتت قبل ذلك.

وكان له أخ شقيق نشأ وطلب العلم ثم مات فحزن عليه والده جداً ولكن أحد المشايخ الصالحين بشره بأن الله سيخلف عليه غيره، ويعمره: قال ابن حجر: "فولدت أنا وليس له سوى شقيقة واحدة أكبر منه نشأت ومهرت في العلم وتوفيت سنة 798، وقد وصفها أخوها بقوله: أمي بعد أمي"، على مسند الحجاز عفيف الدين عبد الله النشاوري[27]، ولعلّ من **أهمّ العوامل التي ساعدت ابن حجر في نبوغه**[28]:

أ- سرعة القراءة الحسنة: فقد قرأ "سنن ابن ماجه" في أربعة مجالس، وقرأ "السنن الكبرى" للنسائي في عشرة مجالس، وكذا "صحيح البخاري" انتهى منه في مجالس أربعة، وغير ذلك كثير.

ب- سرعة الكتابة: فقد كتب بخطه "التقييد" لابن نقطة في خمسة أيام، وكان يكتب من "صحيح البخاري" جزءاً من ثلاثين في اليوم.

ج- ذكاؤه وقابليته على الانتقاء: مما سهل عليه كثيراً من الأمور وهو يفتش في مصنفات الحديث المذهلة.

الفرع الثالث: مشائخه وتلامذته

أ- مشائخه

أولاً- الحافظ العراقي (725-806 هـ)

هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، العراقي الأصل، أبو الفضل الكردي، صاحب التصانيف المفيدة المشهورة، ويُعد من أبرز شيوخ ابن حجر وأهمهم في علوم الحديث، وهو أبرز شخصية تأثر بها، لازمه ابن حجر مدة طويلة (من 796 هـ إلى 806هـ)، وقرأ وسمع عليه الكثير من الكتب والأجزاء والعوالي والأمالي ونحوها مما لا يتسع ذكره هنا[29].

ثانياً- البلقيني (724-805 هـ)

هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني، أبو حفص المصري الشافعي، الشيخ الفقيه المحدث، وهو من أبرز شيوخ ابن حجر في الفقه، وكان أعجوبة في عصره في التوسع في معرفة مذهب الشافعي خاصة، والمذاهب الأربعة عامة، واستفاد منه فقهاء المذاهب الأربعة. أجاز له من دمشق الحافظان الذهبي والمزي، كما أجاز له ابن الخباز وابن نباتة، وآخرون، قال ابن حجر: "لازمت الشيخ مدة، وقرأت عليه عدة أجزاء حديثية، وسمعت عليه أشياء، وحضرت دروسه الفقهية، وقرأت عليه من الكتب (الروضة)، ومن كلامه في حواشيها، و (دلائل النبوة) للبيهقي، وقرأت عليه (المسلسل بالأولية)". كما قرأ عليه جزءاً من (الحلية)، وسمع عليه الكثير من صحيح البخاري وصحيح مسلم، والكثير من سنن أبي داود ومختصر المزني[30].

ب- تلامذته[31]

أولاً- الحافظ السخاوي (831-902هـ)

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر، شمس الدين السخاوي الأصل،

القاهري المولد، الشافعي المذهب، وهو من كبار العلماء المؤرخين، والأئمة المتقنين. لازم الحافظ ابن حجر ملازمة طويلة، وأخذ عنه أكثر تصانيفه، وقدمه الحافظ، وأذن له وهو بحق أنجب تلامذة ابن حجر، ومن مصنفاته البديعة (فتح المغيث) في شرح ألفية الحديث للعراقي و (المقاصد الحسنة)، و (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)، و (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر)، وغيرها.

ثانياً- برهان الدين البقاعي (809-885)

هو الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط -بضم الراء المهملة وتخفيف الموحدة- بن علي البقاعي، الشافعي، الحافظ المفسر، المؤرخ الأديب؛ قال الشوكاني: "وبرع في جميع العلوم وفاق الآفاق، لا كما قال السّخاوي: إنه ما بلغ رتبة العلماء، بل قصارى أمره إدراجه في الفضلاء"، ثم قال: وتصانيفه شاهدة بخلاف ما قاله . . . ومن أمعن النظر في كتاب المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور، علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء، الجامعين بين علمي المعقول والمنقول، وكثيراً ما يشكل علي شيء في الكتاب العزيز، فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها، فلا أجد ما يفيد في الغالب". وله تصانيف كثيرة، من أجلّها الكتاب الذي أشار إليه الشوكاني آنفاً، وكتاب(عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران)، وغيرهما.

ج- مصنّفاته [32]

من مصنّفات الحافظ ابن حجر : ومن مصنفاته: "تغليق التعليق" وصل في تعليقات البخاري، وهو أول تصانيفه، وهو كتاب نفيس وشرح "البخاري" في نيف وعشرين مجلداً سماه "فتح الباري" وصنف له مقدمة في مجلد ضخم، وكتاب "فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في البخاري زيادة، على "تهذيب الكمال" في مجلد ضخم ، وكتاب "تجريد التفسير من صحيح البخاري على ترتيب السور"، وكتاب "تقريب الغريب وإتحاف المهرة بأطراف العشرة" في ثمانية مجلدات، ثم أفرد منه "أطراف مسند الإمام أحمد" وسماه "أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي" في

مجلدين، و "أطراف الصحيحين" و "أطراف المختارة" للضياء مجلد ضخم، و "تهذيب تهذيب الكمال" للحافظ المزي في ستة مجلدات، ومختصرة "تقريب التهذيب" مجلد ضخم، وكتاب "تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة" أصحاب المذاهب، و "الإصابة في تمييز الصحابة" خمسة مجلدات. و "لسان الميزان وتحرير الميزان" و "تبصير المنتبه بتحرير المشتبه" مجلد ضخم، و "طبقات الحفاظ" في مجلدين. و "الدر الكامنة في المائة الثامنة" و "إنباء الغمر بأنباء العمر" و "قضاة مصر" مجلد ضخم، و "الكافي الشاف في تحرير أحاديث الكشاف" مجلد، و "الاستدراك عليه" مجلد آخر، و "التمييز في تخريج أحاديث الوجيز" مجلدين، و "الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية" و "الإعجاب ببيان الأسباب" مجلد ضخم، و "الأحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام" و "الزهر المطول في بيان الحديث المعدل" و "شفاء الغلل في بيان العلل" و "تقريب النهج بترتيب الدرج" و "الأفنان في رواية القرآن" و "المقترب في بيان المضطرب" و "التعريج على التدريج" و "نزهة القلوب في معرفة المبدل من المقلوب" و "مزيد النفع بما رجح فيه الوقف على الرفع" و "بيان الفصل بما رجح فيه الإرسال على الوصل" و "تقويم السناد بمدرج الإسناد" و "الإيناس بمناقب العباس" و "توالي التأسيس بمعاني ابن إدريس" و "المرجة الغيثية عن الترجمة الليثية" و "الاستدراك على الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء" مجلد و "تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي" مجلدين، و "تحفة الظراف بأوهام الأطراف" مجلد، و "المطالب العالية من رواية المسانيد الثمانية"، و "التعريف الأوحد بأوهام من جمع رجال المسند"، و "تعريف أولي التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس"، وكتاب "الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام"، و "تعريف الفئة بمن عاش مائة من هذه الأئمة"، و "القصد الأحمد فيمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد"، و "إقامة الدلائل على معرفة الأوائل"، والخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة"، و "الشمس المنيرة في معرفة الكبيرة"، و "الإتقان في فضائل القرآن" مجلد، و "الأنوار بخصائص المختار"، و "الآيات النيرات للخوارق المعجزات"، و "النبأ الأنبه في بناء الكعبة"، و "القول المسدد في الذب عن المسند"، و "بلوغ المرام بأدلة الأحكام"، و "بذل الماعون في فضل الطاعون"، الذي هو مسكُ حديث هذه الدراسة، و "المنحة فيما علق

به الشافعي القول على الصحة"، و"الأجوبة المشرقة على الأسئلة المفرقة"، و"منسك الحج" و"شرح مناسك المنهاج"، و"تصحيح الروضة"، كتب منه ثلاثة مجلدات، و"نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر" وشرحها "نزهة النظر بتوضيح نخبة الفكر"، و"الانتفاع بترتيب الدارقطني على الأنواع"، و"مختصر البداية والنهاية" لابن كثير، و"تخريج الأربعين النووية بالأسانيد العلية"، و"الأربعين المتباينة"، و"شرح الأربعين النووية"، و"ترجمة النووي"، وغير ذلك.

المطلب الثاني: كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر

الفرع الأول: منهجية إعادة بناء النص التراثي (بذل الماعون في فضل الطاعون)

الناظر في هذا النص التراثي الذي بين أيدينا (بذل الماعون في فضل الطاعون) وسلسلة انتقاله المعرفية وخروجه من حبس النسخ الأصلية من وجه، ثم ما تضمنه من قراءة تاريخية تقريرية للوضع الذي دونت فيه من جانب، وللوضع الذي سيقت منه مادته العلمية (العصر النبوي الشريف) من جانب آخر- يرى أن هذا الكتاب يعتبر سيرورة تاريخية معرفية تكتنز مادة علمية رصينة جامعة لمعطيات معرفية ونظريات علمية، حديثية ذات أبعاد علمية محكمة.

فهذا المؤلّف الذي بين أيدينا (بذل الماعون في فضل الطاعون) لابن حجر العسقلاني حقّقه وعلّق عليه، ووضع له مقدّمة إضافية الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب، ونشرته دار العاصمة، الرياض 1411هـ/ 1991م، ويوجد من الكتاب نسخٌ عديدة مخطوطة ذكر المحقّق **أربع نسخٍ** حصلَ عليها، هي[33]:

أ- نسخة مكتبة الأوقاف الشّرقية بحلب رقم 1258، وهي 113 ورقة بخط نسخ، بخط محمد بن إبراهيم الأنصاري، تمّ نسخها سنة 864هـ في الثالث من ذي الحجة، وهي أفضل النّسخ التي حصل عليها المحقّق وجعلها أصلاً.

ب- نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم 3158 في 107 ورقة بخط نسخ، فرغ منها ناسخها محمد بن محمد بن بهادر المؤمني الشافعي في رجب سنة 784هـ.

ج- نسخة المكتبة العثمانية بحلب رقم (26/ ملحق) في 71 ورقة بخط نسخ، بقلم محمد بن ناصر الدين الشّفوني، سنة 1022.

د- نسخة مكتبة أيا صوفيا بالسليمانية برقم 880 في 154 ورقة بخط نسخ جيد، نسخها الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن بدر الدين بن علي الحسني المصري الشافعي، وفرغ من نسخها في 13 ربيع الآخر سنة 852هـ، وهي أقدم النسخ، وتم نسخها قبل وفاة الحافظ ابن حجر بثمانية أشهر تقريباً.

وذكر المحقّق نسخاً أخرى لم يقف عليها: نسختان في التيمورية (دار الكتب المصرية) برقم 198 ورقم 213 مجاميع، ونسخة في مكتبة أسعد أفندي / 8، وأخرى في عاشر أفندي / 180 وأخرى في كتبخانة أيا صوفيا وغيرها في كوبريللي/ 16، وكلها في تركيا، ونسخة بمكتبة الحرم المدني، وأخرى في جامعة لندن برقم 13998، ونسخة في مكتبة ليدن بهولندا.

عنوان الكتاب

أثبت محقّق الكتاب الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب أنه أثبت العنوان الذي رضيه الحافظ في نسخة أيا صوفيا (ف): و **بذل الماعون في فوائد الطاعون** كذا ورد على الغلاف، وفي مقدّمة المصنّف، أما في نسخة الظاهرية (ظ)؛ فقد ورد عنوان: **بذل الماعون في فوائد الطاعون**، وذكر فيها العنوان: **بذل الماعون في فضل الطاعون**، أما النسخة العثمانية؛ فقد ورد العنوان على الغلاف: **بذل الماعون في فضائل الطاعون**. . وفي مقدمة المؤلف: **بذل الماعون في فضل الطاعون**[34].

الفرع الثاني: العلماء الذين اختصروا كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون

يعود الأصل البنائي للفظة (المختصرات) إلى مادة (خ ص ر)؛ و (الخَصْرُ): وَسَط الإنسان، وجمعه خُصور[35]، وكشح (مخصر) أي: دقيق و (الخاصرة): الشاكلة، و(الخَصَر) بفتحتين البرد، وقد (خُصِرَ) الرجل إذا آله البرد في أطرافه، وخصر يومنا اشتد

برده، وماء (خَصِرٌ) : بارد بكسر الصاد، و(الخِنْصِرُ) بكسر الخاء والصاد الإصبع الصغرى والجمع : (الخناصر)، و (المِخْصرَةُ) بكسر الميم كالسوط، وكل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها، و (خاصره) أخذ بيده في المشي، و(اختصار) الطريق سلوك أقربه، واختصار الكلام إيجازه[36]، أما في الاصطلاح؛ قال النووي : "اختلفت عبارات العلماء في معنى المختصر؛ فقال الشيخ أبو حامد الإسفراييني : حقيقة الاختصار ضمّ بعض الشيء إلى بعض، قال : ومعناه عند الفقهاء؛ ردّ الكثير إلى القليل وفي القليل معنى الكثير، قال: وقيل؛ هو إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى"[37]، ومن خلال ما ذكره النووي يتضح أن معنى الاختصار فيه معنى ضمّ الشيء إلى الشيء وجمعه، وردّ الكثير إلى القليل.

قال الدسوقي: "فالمختصر ما كثر لفظه وقلّ معناه، أو قلّ لفظه ومعناه"[38]، فالمختصر باللفظ القليل يعرّف المعنى الكثير، و الاختصار تقليل اللفظ مع كثرة المعنى، أو تقليل اللفظ مطلقاً؛ أي سواء كثر المعنى أم لا[39].

وقد اختصر كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني مجموعة من العلماء، وأضافوا إليه ما حدث في الطواعين بعد زمان ابن حجر، وبعض تعليقاتهم، وما يرونه من آراء خاصة، نذكر منهم الإمام زكريا الأنصاري، وسماه: (تحفة الراغبين في بيان أمر الطّواعين)، والإمام المناوي (ت781هـ) والسيوطي (ت911هـ)، وسماه (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون) ، وقد وضع ابن حجر كتابه على فترتين:

الفترة الأولى (عام 819هـ): عندما توفيت ابنتاه فاطمة وعالية في الطّاعون الذي حدث ذلك العام.

الفترة الثانية (عام 833هـ) : ترك ابن حجر الرسالة بعد وفاة ابنتيه ولم يتمّها إلا بعد وفاة ابنته الكبرى زين خاتون بالطاعون في سنة 833هـ، وهي حامل، فحَمَله ذلك على إتمام رسالته، مع ما توجّب عليه للردّ على بدعة الخروج إلى الصّحراء بعد صيام ثلاثة أيام كما في الاستسقاء، بالإضافة إلى طلب بعض الإخوان[40].

الفرع الثالث: المحتوى الإجمالي لكتاب بذل الماعون في فضل الطاعون

قسّم ابن حجر كتابه إلى خمسة أبواب؛ هي: (1) مبدأ الطاعون، (2) التّعريف بالطّاعون، (3) في كونه شهادة، (4) في حكم الخروج من البلد الذي يقعُ بها الطّاعون والدّخول إليها، (5) فيما يشرعُ فعله بعد وقوعه، ولكل باب مجموعة من الفصول، ويعتبر الكتاب ثروة في الأحاديث النبوية الواردة في الطاعون، وقد أفاض الحافظ في شرحها وتبيينها، ثم ختم الكتاب بذكر الطواعين التي وقعت في الإسلام، ونبذة مما قيل فيها إلى زمنه[41].

المطلب الثالث: منهجية التصنيف في كتاب بذل الماعون في فضل الطّاعون

الفرع الأول: الموارد التّصنيفية التي اعتمد عليها ابن حجر

إنّ أول عمل قام به ابن حجر عند شروعه في تصنيف هذا الكتاب، هو جمع مادته العلمية؛ وكان ذلك سنة 819هـ، فهو يقول: " . . . وهذا من الأسباب الحاملة على تبييض هذا الكتاب، بعد أن كنتُ جمعتُ منه أكثر الأحاديث، وبعض الكلام عليها، في سنة تسع عشرة وثمان مائة "[42]، ثمّ إن المادة العلمية قد لا تقتصر على ما هو محفوظ في الذّهن كما يتصوّر، وإن كان هذا مستساغاً خاصّة للحافظ ابن حجر وأمثاله من العلماء في تلك العصور، الذين تميزوا بالموسوعية في الطّرح والاحتواء في التعليل، والتّدليل، بيد أن الظاهر أن الحافظ ابن حجر كان يكتب ما يجمعه على كراريس دون ترتيب، ثم عندما يشرعُ في التّصنيف يستعين بذاكرته في استخراج هذه المادة العلمية من الكراريس، أو بإشارات مكتوبة على طريقة الفهرس، والحافظُ في جميع ذلك يرجعُ إلى الأصول في كلّ فرع من الفروع، إن في الأحاديث، أو في اللغة، أو في الطب، ولا يكتفي بالكتب المتأخرةً، بل لا يرجعُ إليها إلا لفائدة، أو لضرورة ملحة، أو لزيادة خبر، أو غير ذلك، بعد أن يكون قد استنفد الأصول، ومن أمثلة ذلك ورود لفظة (إخوانكم) بدل (أعدائكم) في قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: "وخز أعدائكم من الجنّ"؛ فهو يقول: راجعتُ كتاب أبي عبيد في (غريب الحديث) ثم كتاب أبي محمد بن قتيبة في ذلك، وهو كالذيل على كتاب أبي عبيد؛ ثم كتاب أبي سليمان الخطابي في ذلك، وهو كالذيل على

كتاب بن قتيبة، ثم كتب قاسم بن ثابت السّرقسطي في ذلك، وهو كالذيل على كتـاب ابن قتيبة أيضاً، فلم أره فيها أصلاً، ولا في (الفائق) للزمخشري، وكذلك غريب الحديث لإبراهيم الحربي، وهو أوسعُ هذه الكتب كلها، ومع ذلك ما أكمله، فلم أجده فيه[43].

الفرع الثاني: النسق الفني لكتاب بذل الماعون في فضل الطاعون

يعتبر الغالب على كتاب **بذل الماعون في فضل الطاعون** الصّنعة الحديثية، لاستيعابه طرق أحاديث الطاعون وكلامه عليها وتبيينه لها، أما ما وقع من هذه الأحاديث استطراداً كالفصل الذي عقده في الأذكار التي تحرسُ من قالها من كيد الجنّ، وهو الفصل الثامن من الباب الثاني؛ فيمكنُ أن نوجه سوقه لها بإرجاعنا إلى التحليل المصطلحي لمصطلح الطاعون؛ فمن العلماء من ربط الطاعون بالجن، ولعلّ ابن حجر أراد أن يثبت ذلك، أو أن يوجّهه من وجه آخر؛ ثمّ إن الظاهر من حديثِ ابن حجر في مقدّمته لكتابه أنه ألف كتابه إجابة لسؤال بعض الإخوان الذين سألوه جمع الأخبار الواردة في الطّاعون، مع شرح غريبها، وتيسير معانيها على الأفهام وتقريبها، وتبيين أحكامها، وتحسين أقسامها، فجاء ترتيبه له على وفق خمسة أبواب (5) : الباب (1) في مبدئه، ثم الباب (2) في التعريف به، ثم الباب (3) في بيان كونه شهادة، ثم الباب (4) في حكم الخروج من البلد الذي يقع بها والدّخول إليها، ثم الباب (5) فيما يشرعُ فعله بعد وقوعه[44]، وهذا المنهجُ الذي ارتضاه ابن حجر كفهرسة لكتابه ينبني عن نظرة تاريخية مراعية للتنسيق الفني فيه؛ خاصّة بالعودة إلى ظروف تأليفه لكتابه، وإجابته لطلابه، والفترة التي كان فيها التأليف؛ مما يؤجّج نظرة تأريخية شمولية ملحّة على هذا التجزيء التأليفي من وجه، والجمع الحديثي، الموافق للترتيب المنسق والمحكم من وجه آخر، يؤيد ذلك عدم مراعاته للتناسق بين عدد الصّفحات في كلّ باب، أو كمية المعلومات والأحاديث المستقاة فقد تكثر في باب دون آخر، وقد تتكاثر الأسطر في فصل دون غيره.

الفرع الثالث: النسق التعبيري لكتاب بذل الماعون في فضل الطاعون

يمكن قسمة هذا الفرع إلى أجزاء أساسية تحتويه بيانها على النحو الآتي :

تنوعت مصادر كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون عند ابن حجر؛ نذكر من ذلك

على سبيل المثال: مصدر المشاهدة والمشاركة ؛ كان لأخذ (ابن حجر) عن عدد – لا بأس به– من العلماء والمحدّثين والمشتغلين. . وغيرهم، وتوليه العديد من المناصب المهمة في ظلّ الإدارة المملوكية، ومجالسته للسلاطين، والخلفاء والرؤساء، ومن دونهم من رجالات الدّولة والشّخصيات المرموقة في عصره[45]، من أمثلة ذلك قوله : (وقرئ على خديجة بنت إبراهيم البعلبكية بدمشق وأنا أسمع)[46]، وقوله : (وقال لنا شيخنا الفاضل أبو الفضل بن الحسين)[47]، (وذكر جمع من الأطباء)[48]، وغير ذلك من النقولات الشّفوية، وتلكم الإجازات والسّماعات؛ التي تكلّل ببعضها كتابه، بذل الماعون، ولا تخلو كتاباته من الإشارة إلى موضع النّقل، إضافة إلى بداية النقل وانتهائه، واهتمامه بموارد المصادر التي ينقل عنها.

الخاتمة

يمكننا أن نوجز خاتمة هذه الدراسة في النقط التالية :

1 – إن الحديث عن نسق واحد في الكتابة التاريخية المعاصرة قد أضحى أمراً متجاوزاً؛ إذ قد حدثت الكثير من الهزات القوية في الكتابة التاريخية المعاصرة أدت إلى انتقالها من التّأريخ للسلطة السياسية والصراعات البينيّة، إلى التأريخ لوجود الإنسان في كينونته الحقيقية، وجعل هذا الكائن بإنسانيته مركزاً محورياً تبنى على وفق أساسيات الفهم الواعي للتاريخ، وقد تمظهر هذا الأمر في تغيير اتّجاه البوصلة التاريخية من السّرد التاريخي الجاف، إلى طرح تاريخي جديد يدّعي معالجة المجتمع الإنساني من تلكم التّداعيات التي تختلج طريقه، وتعتري سبيله، وما داء كورونا عنا ببعيد، مثلما حاول هذا النوع من الكتابة التاريخية إبراز العلاقة القوية التي تربطُ التاريخ بباقي حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية عامة، سواء ما تعلّق منها بالدراسة اللامادية للإنسان؛ كما تقرّر في اصطلاح تخصّصها، أو ما تقرّر بدراسة الإنسان وموضوعاته العامة كالطب، وغيرها.

2 – لعلّ من أرقى ما ظهر في هذه الدراسة هو الرغبة في تبني نوع من الدراسات التاريخية التي عملت في جوهرها على تصحيح مدارات البحوث باتّجاه التاريخ

الأنثروبولوجي، والتاريخ الديمغرافي، وتاريخ الذهنيات، وغيرها من المضامين الجديدة التي حاولت إقحام الدّراسة التاريخية في شقي الحياة العامة والخاصة، وبلورتها لتاطير الحياة الفكرية؛ إذ لا تكادُ تخرجُ أغلب المصنفات التراثية الخاصة بالجامعة الإسلامية عن جمالية هذا العنصر؛ وهذا يدلّ على النظريات العربية التاريخية العميمة، التي تنبع بالأصالة، فإذا كانت النظريات المستحدثة قد توصلت إلى وظيفية علم التاريخ، وجعله أكثر ملامسة للواقع البشري، فلعلّ الدراسات الإسلامية على وجه العموم والعربية منها على وجه الخصوص في العجلة التأليفية، قد كانت سبّاقة إلى فرض هذا الموضوع، والتّشوف إلى ريادة مادة التاريخ في شتى التخصصات حتى الطبية منها، وإدارتها للأزمات حتى الصّحية منها.

3- مُعظم الكتب التراثية العربية التي اهتمت بالتعريفات اللغوية ذهبت إلى القول: إن الوباءَ هو نفسه الطاعون؛ أو بأنه مرضٌ عام، ولم يفرّقوا بينهما البتة، كما هو الحال لدى كلّ من (الجوهري) في الصحاح، وابن منظور في (لسان العرب)، والفيروزآبادي في (القاموس المحيط) أما من الناحية الاصطلاحية في مجالنا التداولي؛ فلعلّ من أشهر التعريفات الاصطلاحية؛ ما ذكره صاحب كتاب (غريب الحديث) بقوله: "المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء، فتفسُد به الأمزجة والأبدان" ، أما العسقلاني؛ فقد ذكر تعريفه في فتح الباري بقوله "والحاصل أن حقيقته ورمٌ ينشأُ عن هيجان الدم، أو انصباب الدّم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من **الأمراض العامة** الناشئة عن **فساد الهواء** يسمى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض وكثرة الموت" ، وإذا تأملنا مصطلحين ألمح إليهما العسقلاني وهما (الأمراض العامة) و(فساد الهواء) اتضح لنا ما أثبتته الدراسات الحديثة في أفنان شرحها لمصطلح علم الأوبئة بأنه علم يعتني بدراسة الحالات الجماعية للعدوى وليس بالحالات الفردية (ولا تحصل العدوى إلا بعد حصول فساد في الهواء، أو ما يقاربه له من ملامسة؛ يعود أصلها إلى محل من محالّ الحواس انتهاء)، وليس إلى هذا الحد فقط، بل يمكننا حتى أن نقارب بين تعريف ابن حجر العسقلاني وبين تلكم الاهتمامات التي يركّز عليها علم الأوبئة؛ فعلم الأوبئة يركز اهتمامه على شقين

اثنين، الأول: دراسة انتشار المرض في الأماكن المحددة وبين الفئات المختلفة، والثاني: دراسة العوامل المؤدية لانتشار هذه الأوبئة، نستمد مقاربتها تأصيلاً من قول ابن حجر (والحاصل أن حقيقته ورمٌ ينشأُ عن هيجان الدم، أو انصباب الدّم إلى عضو فيفسده)، وهذا في حاصله تكييف للفئات المصابة بالمرض، وتكييف الفئات مساعد على دراسة انتشاره، وفي قوله: (ولا تحصل العدوى إلا بعد حصول فساد في الهواء) إشارة إلى المرتكز الثاني.

4- الناظر في التراث العربي الإسلامي الذي يختص بمدارسة الأوبئة والجوائح في الجامعة الإسلامية، يتّضح له أن مؤلفيها سلكوا منهجين في التدوين:

المنهج الأول: النظرية الوقائية الاحترازية؛ وهي نظرية عامة انتهجها مدونو التراث الإسلامي؛ بغية إعلام القارئ معالم الوقاية من الأوبئة، بمعرفة أسبابها، وانتهاج سبل الكشف المبكر عنها، والاحتياط في عدم الأخذ بالأسباب المفضية إليها ابتداء بالابتعاد عنها، وعدم الاقتراب إليها.

المنهج الثاني: النظرية الاحتياطية؛ ولنا أن نمثل جانباً واحداً منها، وهو تقوية المناعة عن منحيين: المنحى الأول: تقويتها بتقوية أُصُر الاعتقاد، الدّعاء، التوكل، تصحيح النوايا، المنحى الثاني: الاعتماد على تقوية الجسم بالأغذية والأطعمة التي يرجى الشّفاء بما فيها من فوائد.

المنهج الثالث: التدابير الوقائية بعد وقوع الفعل: وذلك متمثّل في ما يجب فعله إن نزل الطاعون.

5- إن الأزمات الصحية والأوبئة كانت أحد الأركان الأساسية التي تأسست على وفقها الحياة العامة في زمن الكتاب، لذا نجد المؤلّف (العسقلاني) يتجاوز مسرحة الأحداث إلى التأصيل لها، فيذكر مثلاً (اختلاف الصحابة في البلد الذي يقع فيه الطاعون) وأخبار السّابقين كإجراء وقائي احترازي للحفاظ على سلامة السكان من منطلق شرعي، ويتفاعل مع الأحداث سواء بعلمه أو دون علمه، واستناداً إلى ما سبق لا يعدو أن نقول إن الأوبئة في القرن التاسع الهجري كانت تجسيداً لشكل من

أشكال البؤس الإنساني الذي تولّد في ظروف حياة قاسية .

الهوامش والمراجع

(1) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت 393هـ): **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط4، ج6، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1407 هـ/ 1987 م، ص168.

(2) ابن منظور الإفريقي: **لسان العرب**، دط، ج1، بيروت، لبنان: دار صادر، دت، ص189.

(3) لاشين، موسى شاهين: **فتح المنعم بشرح صحيح مسلم**، ط1، ج8، بيروت: دار الشروق، ص597.

(4) فتح المنعم بشرح صحيح مسلم، ص497.

(5) من خلال كتابه: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محمد فؤاد عبدالباقي، دط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت، ج11، ص153.

(6) قطاية، سليمان: **الأوبئة في الطب العربي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ص13.

(7) الكرمي، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: 1033 هـ): **ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون – سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام (18)**، تقديم وتعليق: خالد بن العربي مدرك، الطبعة الأولى، ج1، بيروت – لبنان: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1421 هـ/ 2000 م، ص37.

(8) ذكرت هذه الكلمة في المعاجم التي عاش أصحابها ما بين القرنين الثّالث والرّابع الهجري، بينما غابت غياباً تاماً في أول معاجم اللغة العربية في مادّة (حضر)، ينظر؛ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: **كتاب العين**، ت: مهدي المخزومي، وإبراهيم السّامرائي، ط1، ج3، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1988م، ص101–103.

(9) مصطلح البدو؛ أو البداوة: يستعمل هذا المصطلح في وصف طبيعة حياة النّاس الذين يعيشون في الصّحاري ويسكنون الخيام، ويتجوّلون من مكان لآخر بحثاً وراء العشب والماء، ينظر: إحسان، محمد الحسن: **موسوعة علم الاجتماع**، ط1، بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1999، ص123–124.

(10) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**، ت: عبد السّلام محمد هارون، ج2، سوريا: دار الفكر، 1976م، ص75–76.

(11) الحضارة عند ابن خلدون تعني غاية المبالغة في التّرف، وإحكام الصّنائع، ويرى أن طور الحضارة يتبع طور البداوة لتبعية الرّفه للملك؛ ينظر: ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد: **مقدّمة ابن خلدون**، ت: عبد الله محمد الدّرويش، ط1، ج1، 2004م، ص338، وذكر في موضع آخر أن الحضارة: هي سرّ الله في حصول العلم، و إحكام الصّنائع؛ ينظر: مقدّمة ابن خلدون: ص3، ص363.

(12) التويجري، عبد العزيز بن عثمان: **خصائص الحضارة الإسلامية، وآفاق المستقبل**، سنة 2000م، ص4.

(13) محمد البشير؛ بشير، محمد: "القيم الحضارية مفهومها وأهميتها ووسائل تحقيقها في السّنة النبوية"، **دراسات دعوية**، المملكة العربية السّعودية: جامعة جازان، العدد 15، 1429ه2008–م، ص7.

(14) القيم الحضارية مفهومها وأهميتها ووسائل تحقيقها في السّنة النبوية، ص7 – 8 .

(15) النّجار، عبد المجيد: "معالم المنهج الحضاري في الإسلام" ، **ثقافتنا للدّراسات والبحوث**، العدد25، 2010، ص149.

(16) خصائص الحضارة الإسلامية، وآفاق المستقبل، ص7.

(17) بن عاشور، محمد الطاهر: **أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام**، حلب: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2016، ص47–48.

(18) أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص5.

(19) أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص5.

(20) هذه المرتكزات لم ينص عليها ابن عاشور بنفسه، وإنما استنبطت من مجموع تشوّفاته الحضارية للنهوض بالأمة الإسلامية، في القسم الثّاني من كتابه أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام، الذي خصّ الحديث فيه عن الإصلاح الاجتماعي، وللنّجار، عبد المجيد هيكلة نظرية، وإضافة نوعية في مادّة مرتكزات المنهج الحضاري للحضارة الإسلامية؛ ينظر: النجار، عبد المجيد: "معالم المنهج الحضاري في الإسلام" ، **ثقافتنا للدّراسات والبحوث**، العدد 25، 2010م .

(21) أصول النظام الاجتماعي، ص101، بتصرف.

(22) أصول النظام الاجتماعي، ص101.

(23) أصول النظام الاجتماعي، ص111.

(24) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص112–113، بتصرف.

(25) أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص23.

(26) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ): **المَطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثّمَانِيَةِ**، المحقق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشَّثري، الطبعة الأولى، ج1، الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع– دار الغيث للنشر والتوزيع، 1419 هـ – 1998 م، ص36.

(27) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن حجر: **العجاب في بيان الأسباب**، المحقق: عبد الحكيم محمد الأنيس، ج1، السعودية: دار ابن الجوزي، ص36.

(28) المَطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثّمَانِيَةِ، ج1، ص43.

(29) المَطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثّمَانِيَةِ، ج1، ص53.

(30) المَطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثّمَانِيَةِ، ج1، ص53-54.

(31) المَطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثّمَانِيَةِ، ج1، ص58 وما بعدها.

(32) العكري؛ عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، ج9، دمشق – بيروت: دار ابن كثير، 1406 هـ/ 1986 م، ص397.

(33) ابن حجر؛ أحمد العسقلاني: **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تح: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دط، الرياض: دار العاصمة، دت، ص43، ينظر أيضاً: السيوطي؛ جلال الدين (ت911هـ): **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، تح: محمد علي البار، دط، دمشق: دار القلم، دت، ص85.

(34) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص44.

(35) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل: **لسان العرب**، ج5، لبنان: دار صادر، 2003م، ص79.

(36) الرازي؛ محمد بن أبي بكر عبد القادر: **مختار الصّحاح**، لبنان: المكتبة العصرية، (1420هـ/ 1999م)، ص91؛ وينظر أيضاً: الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، بيروت: دار الجيل، ص360.

(37) النووي؛ أبو زكريا محيي الدين بن شرف (ت676هـ): **تهذيب الأسماء واللغات**، ج1 من القسم الثاني، بيروت: دار الكتب العلمية، د ت، ص90-91.

(38) الدسوقي، شمس الدين محمد عرفه: **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**، ج1، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د ت، ص18.

(39) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، ج1، ص19.

(40) ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، ص86-87.

(41) ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، ص86 – 87.

(42) بذل الماعون في فضل الطاعون ، ص45.

(43) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص46.

(44) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص65-67.

(45) عز الدين، محمد كمال: **التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني**، ط1، جامعة عين الشمس: دار اقرأ، 1404هـ/ 1984م، ص341.

(46) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص120.

(47) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص121.

(48) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص341.

المجلة التربوية

مجلة فصلية، تخصصية، محكّمة
تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير: أ. د. سلطان غالب الديحاني

تنشر:

- البحوث التربوية المحكمة
- مراجعات الكتب التربوية الحديثة
- محاضر الحوار التربوي
- التقارير عن المؤتمرات التربوية وملخصات الرسائل الجامعية

- تقبل البحوث باللغتين العربية والإنجليزية.
- تنشر لأساتذة التربية والمختصين بها من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية.

الاشتراكات:

في الكويت: ثلاثة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول العربية: أربعة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول الأجنبية: خمسة عشر دولاراً للأفراد، وستون دولاراً للمؤسسات.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير المجلة التربوية - مجلس النشر العلمي ص.ب. ١٣٤١١ كيفان - الرمز البريدي 71955
الكويت هاتف: ٢٤٨٤٦٨٤٣ (داخلي ٤٤٠٣ - ٤٤٠٩) - مباشر: ٢٤٨٤٧٩٦١ - فاكس: ٢٤٨٣٧٧٩٤
E-mail: joe@ku.edu.kw